الفصل الأول:
السياق التاريخي لأندية المسامرات

المسامرات:

محاضرات ليلية ألقاها مجموعة من العلماء والمفكرين والمترجمين والتجار المغاربة، والزائرين الأجانب من العرب والفرنسيين، بأندية ثقافية خلال فترة الحماية، في نوادي الخطابة، أو نوادي المسامرات، سواء في فاس، أو مكناس أو الرباط أو الدار البيضاء، تحت رعاية مدراء المدارس كمدرسة مولاي إدريس بفاس، أو مدراء المعاهد العليا كالمعهد العلمي الأعلى بالرباط، أو غرف الصناعة والفلاحة كما حصل بالدارالبيضاء، أو المدارس العسكرية كما حدث بمكناس. أتت هذه المسامرات بإيعاز من ليوطي ضمن عقيدته الاستعمارية أو ضمن خطته لكسب المغاربة والتطبيع معهم وتقديم الوجه الجميل للحماية، وجه الرقي والتمدن من خلال مدخل المعرفة والتعليم والثقافة.

ليوطي والمعرفة الاستعمارية:

(أدرك بشكل مبكر أن استعمار هذا البلد يجب أن يكون علميا)[١] ومن هذا المنطلق شكل ليوطي مجموعات ولجان البحث العلمي حول المغرب: تاريخه، جغرافيته، سكانه، قبائله، ثقافته، عاداته....، منها البعثة العلمية تحت إشراف ألفريد لوشاتوليي، ثم معهد الدراسات العليا المغربية تحت إشراف جورج هاردي ثم لجنة الدراسات البربرية والجمعية الجغرافية للمغرب.

اهتمت الحماية في شخص ليوطي في إطار توظيف المعرفة بعلم التاريخ وعلم الاجتماع، بتسخير هذين العلمين في الترويج لمجموعة من المقولات الاستعمارية أهمها: التضاد بين المخزن والسيبة، بين الرحل والمستقرين، بين الشرع والعرف، بين العرب والبربر....، التوازنات القبلية، على الصراع القبلي دون الإشارة إلى الدولة (نحن هنا أمام تاريخ أعيدت كتابته لحاجة المستعمر)[٢]، وعلى ضوء هذه الدراسات بنى

---

(١) عبد الله بن المليح، التاريخ السياسي للمغرب في عهد الحماية، ترجمة محمد الناجي ص٧١.

(٢) عبد الله بن المليح، التاريخ السياسي ص٢٥٣.

ليوطي مذهبه الاستعماري الذي يقوم على جملة من المقولات منها : المحافظة: أي الحفاظ على الوضع كما كان، الحفاظ على المخزن برجاله وطقوسه وامتيازاته وهيبته (وقد مكنت هدا المبدأ السلطة الاستعمارية من كسب ودعم نخبة تقليدية خاصة فئة القواد)[١].

لقد مكنت المعرفة الاستعمارية النظام من بلورة خطاب معين حول المجتمع المغربي، وكذا بلورة تمثل لماضي وحاضر هذا المجتمع... فالأفكار والنظريات والأساطير الاستعمارية ستلعب دورا حاسما في تحديد العمل السياسي للنظام الاستعماري) وبالتالي التأسيس لسلطة الحماية من خلال مأسستها عبر (إقامة نظام قادر على إزالة هيآت السلطة الأهلية، وإسناد الإدارة السياسية لممثلي السلطة الاستعمارية، في هذا النظام لا تكون المؤسسات الأهلية عديمة النفع، فهي تقوم بالمهام التي تسندها إليها السلطة الاستعمارية وخاصة مهمة إكسابها الشرعية)، والظهور في صورة غير المستعمر وهو ما يسمى بالهيمنة الناعمة (نحن هنا أمام بناء فكري يسعى للحفاظ على البنيات الموجودة والإبقاء على الأطر التقليدية مع فتح المجتمع على عصرنة استعمارية)[٢].

بناء يقوم على الجاذبية (يجب أن لايكون الهدف من الغزو هو تدمير الخصم، بل جذبه نحونا، الهدف من التوغل ليس هو طرد الأهالي أو إدماجهم، بل إشراكهم)[٣] لقد اعتبر ليوطي الحماية نوعا من المراقبة، فهي تمكن من إدارة الأمور بالاعتماد على الأطر المحلية وعلى رأسهم السلطان، وفي هذا السياق يحذر من المساس بجلالته، ومن هذا المنظور تمت البيعة للمولى يوسف ١٣ غشت ١٩١٣ الموافق للفاتح من رمضان ١٣٣٠، باختيار من قبل ليوطي واستشارة مع السلطان عبد الحفيظ الذي فضل التنازل عن العرش، (وهو رجل لين لم يكن مرشحا في يوم من الأيام لتولي مثل هذه المسؤولية، لقد حرص ليوطي على جعل مولاي يوسف يغرق في التقاليد البالية، وعزله

---

(١) نفسه: ص٢٦٤.

(٢) زين العابدين العلوي، المغرب من الحسن الأول ٥١/٢

(٣) عبد الله بن المليح، التاريخ السياسي...ص ١٦٠.

عن مؤثرات الحضارة، وأحاطه ببطانة من الرجال المحافظين والعاملين على خدمة مصالحهم بالتعاون مع الحماة)[(١)].

ليوطي والعلماء:

تمكن ليوطي من التأثير في المجتمع المغربي إلى حد أصبح معه مثار إعجاب كبير، وحوله إلى أسطورة في نظر الكثيرين من العلماء الذين فضلوا العمل معه، ومنهم أبو شعيب الدكالي الذي أصبح وزيرا للعدلية سنة ١٩١٢، وهو الشيخ المعروف بسلفيته ويعد ضمن رواد السلفية بالمغرب. ومحمد بن الحسن الحجوي، وكان من أبرز الرجال الذين قبلوا العمل مع الحماية وكان حينها مديرًا للمعارف.

سعى ليوطي منذ بداية الحماية، إلى تقوية شبكة الاتصال مع العلماء وإلى كسب دعم ومساعدة البارزين منهم، للقيام بالإصلاحات التي نصت عليها معاهدة فاس، وإسناد بعض المناصب لبعضهم، ولضمان المحافظة على الاتصال بهذه النخبة الحضرية، اتبع ليوطي سياسة الحظوة، وتتجلى بعض مظاهرها في إرسال وفود من هذه الفئة إلى فرنسا على نفقة الدولة الحامية لحضور الاحتفال بذكرى ١٤ يوليوز، وقد صارت هذه الظاهرة عادة سنوية، وكان الحجوي ضمن الوفد الذي زار فرنسا ١٩١٩، وقد دون هذه الرحلة في كتابه الرحلة الأوربية.

وأصبح لدى هذه النخب إقرار بواقع (هذا النوع من الإقرار بالأمر الواقع كمعبر عن ثقافة المهزوم أو البراغماتي أصبحت متداولة في مختلف الأوساط المحيطة بالسلطان، لذلك لا غرابة أن تسود النزعة الفردية والهرولة نحو فرنسا طمعا في حمايتها أو التعاون معها، وهو قول ينطبق على الكلاوي القائد، والتازي الأمين، والوزاني الشريف، والحجوي التاجر والفقيه...)[(٢)].

ليوطي وأندية المسامرات:

من أجل التواصل مع النخب العالمة والتاجرة، والنخب الحضرية بشكل عام، ومحاولة احتوائها، قام ليوطي بإنشاء أندية، وهي فضاءات جديدة لم تكن مألوفة لدى

---

(١) زين العابدين العلوي، المغرب في عهد المولى يوسف، ٢/٢٩.

(٢) الطيب بياض المخزن الضريبة والاستعمار، ص٣٠٧.

هذه النخب، فضاءات جاذبة من خلال استقدام مجموعة من العلماء الأجانب العرب المسيحيين والفرنسيين، وتنظيم حفلات استقبال عند افتتاحها بحضور الأعيان ورموز الاستعمار، وإلقاء الكلمات، وقد وجدت هذه النخب في هذه الأندية مناسبة لللقاءات وتبادل الآراء والاستمتاع بالسمر، وخلق علاقات عامة، وقد وجد ليوطي في المدارس والثانويات والمعاهد مسرحا لإقامة مثل هذه الأندية، وفي هذا السياق شكلت الثانوية الإسلامية مولاي إدريس بفاس مسرحا لإنشاء هذا النادي، الذي يعتبر ملتقى علميا لإلقاء المحاضرات (مسامرات)، كما شكل لاحقا المعهد العلمي الأعلى بالرباط هو الآخر مكانا لذلك، وقد أقدم الجنرال ليوطي على خلق هذه الثانوية في إطار السياسة التعليمية الفرنسية، الرامية إلى خلق نخب فرنسية صالحة للاشتغال بالإدارة، تشكل لاحقا حصان طروادة لمزيد من الاختراق الفرنسي داخل المجتمع المغربي.

تم افتتاح هذه الثانوية في ٩ نونبر ١٩١٤، وتم تعيين ألفريد بييل مديرا لها، ثم بول مارتي من بعده، وشغلت في البداية أحد القصور الفخمة (دار البريهي الموجودة بسويقة بن صافي، وتم التأسيس لها رسميا من خلال ظهير شريف صدر في ١٧ يبراير ١٩١٦، وتم تحويلها سنة ١٩٢٠-١٩٢١ إلى بنايتها الجديدة ببوجلود، وقد تم الشروع في إلقاء أولى المحاضرات بها سنة ١٩١٥، واستهدفت أساسا مخاطبة النخبة الفاسية، ومحاولة استغلالها لخدمة المشروع التعليمي الفرنسي، ومحاولة لتمتين العلاقة بين الفرنسيين والمغاربة(١).

تمكن ليوطي من خلال هذه الأساليب، التأثير في نفسية شرائح واسعة من المغاربة، وإقناعهم بالنقص والقصور لديهم، واستسلامهم في النهاية لسلطة الحماية، والتماسهم الخلاص في النموذج الاستعماري.

الحماية والإنتاج المعرفي:

عرفت فترة الحماية نوعا من الانبعاث الثقافي والفكري، حيث انبرى العديد من الفقهاء والعلماء للدفاع عن الهوية المغربية ثقافة دينًا ولغة وتاريخًا، ويمكن ذكر البعض منها كاللسان المعرب لابن الأعرج السليماني، والمفاخر العلية لللجائي، والحلل البهية

---

(١) محمد اليزيدي، التعليم في عهد الحامية، فاس نموذجا، رسالة مرقونة بكلية الآداب، ظهر المهراز فاس، ص ٢٠٢.

للمشرفي، والمنزع اللطيف لابن زيدان، والبستان الجامع لابن ابراهيم السباعي، وسلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني، في هذه الفترة من تاريخ الحماية بدأت سلطة الحماية في نشر بعض الوثائق الخاصة بالمغرب في دورية الوثائق المغربية من تأليف ميشو بيلير أحد أقطاب الاستعلامات الفرنسية، وإحداث المدرسة العليا للعربية واللهجات البربرية وإصدارها للسلسلة المشهورة الأرشيفات المغربية، والتي تحولت إلى معهد الدراسات اللغوية العليا والذي اقترن، بإصداره لمجلة العالم الإسلامي ودورية هسبريس برئاسة جورج هاردي، وفي المقابل كثرت الدراسات الفرنسية في شخص هنري دو كاستر الذي ألف المصادر الغميسة حول تاريخ المغرب، وروبير مونطاني الذي ألف حول المجتمع المغربي.